﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

ومعناها : اذكر اذ استسقى موسى لقومه .. وهذه وردت كما بينا في عدة آيات في قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾

(من الآية ١٤١ سورة الاعراف)

وقول سبحانه :

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾

(من الآية ٥١ سورة البقرة)

وقوله جل جلاله :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة البقرة)

وقلنا أن هذه كلها نعم امتن الله بها على بني اسرائيل وهو سبحانه وتعالى يذكرهم بها . إما مباشرة وإما على لسان موسى عليه السلام . والحق يريد أن يذكر بني اسرائيل حينما تاهوا في الصحراء أنه أظلهم بالغمام .. وسقاهم حين

طلبوا السقيا . . ولقد وصلت ندرة الماء عند بنى اسرائيل لدرجة أنهم لم يجدوا ما يشربونه . . لأن الانسان يبدأ الجفاف عنده لعدم وجود ماء يسقى به زرعه . . ثم يقل الماء فلا يجد ما يسقى به أنعامه . . ثم يقل الماء فلا يجد ما يشربه . . وهذا هو قمة الجفاف أو الجدب . .

وموسى عليه السلام طلب السقيا من الله تبارك وتعالى . . ولا تطلب السقيا من الله إلا إذا كانت الأسباب قد نفدت . . وانتهت آخر نقطة من الماء عندهم ، فالماء مصدر الحياة ينزله الله من السماء . . وينزله نقيا طاهرا صالحا للشرب والرى والزرع وسقيا الأنعام . .

والحق سبحانه وتعالى جعل ثلاثة أرباع الأرض ماء والربع يابسا . . حتى تكون مساحة سطح الماء المعرضة للتبخر بواسطة اشعة الشمس كبيرة جدا فتسهل عملية البخر ، فانك اذا جئت بكوب ماء وتركته فى حجرة مغلقة لمدة يومين أو ثلاثة . ثم عدت تجده ناقصا قيراطا أو قيراطين . ولكن إذا أمسكت ما فى الكوب من ماء وألقيته على أرض الحجرة . . فإنه يجف قبل أن تغادرها . . لماذا ؟ . . لأن مساحة سطح الماء هنا كبيرة . . ولذلك يتم البخر بسرعة ولا يستغرق وقتا .

هذه هى النظرية نفسها التى تتم فى الكون . الله تبارك وتعالى جعل سطح الماء ثلاثة أرباع الأرض ليتم البخر فى سرعة وسهولة . . فيتكون السحاب وينزل المطر نأخذ منه مانحتاج اليه ، والباقى يكون ينابيع فى الأرض ، مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الزمر)

هذه الينابيع تذهب الى أماكن لا يصلها المطر . ليشرب منها الناس مما نسميه الآبار أو المياه الجوفية . . وتشرب منها انعامهم . . فإذا حدث جفاف يخرج الناس رجالا ونساء وصبيانا وشيوخا . يتضرعون الى الله ليمطرهم بالماء . . ونحن اذا توسلنا بأطفالنا الرضع وبالضعفاء يمطرنا الله .

وبعض الناس يقولون ان المطر ينزل بقوانين علمية ثابتة . . يصعد البخار من البحار ويصبح سحابا فى طبقات الجو العليا ثم ينزل مطرا . . تلك هى القوانين الثابتة لنزوله .

وأن السحاب لابد أن يكون ارتفاعه عدد كذا من الأمتار . . ليصل الى برودة الجو التى تجعله ينزل مطرا . ولابد أن يكون السحاب ملقحا . . نقول ان هذا كله مرتبط بمتغيرات . فالريح تهب أو لا تهب . وتحمل السحاب الى منطقة عالية باردة ولا تحمله وغير ذلك . .

إذن فكل ثابت محمول على متغير . . قد تعرف أنت القوانين الثابتة . . ولكن القوانين المتغيرة لايمكن أن تتنبأ بما ستفعل ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦ ﴾

(سورة الجن)

إذن فعوامل سقوط المطر لاتخضع لقوانين ثابتة . ولكن المتغير هو العامل الحاسم . ليسوق السحاب الى المناطق الباردة والى الارتفاع المطلوب . . ولابد أن نتنبه الى ان هناك قوانين ثابتة فى الكون وقوانين تتغير . . وأن القانون المتغير هو الذى يحدث التغيير .

وقوله تعالى : «وإذ استسقى موسى لقومه» . . تدل على أن هناك مُستسقى بفتح القاف وأن هناك مستسقى بكسر القاف . . مستسقى بكسر القاف أى ضارع الى الله لينزل المطر . . أما المستسقى بفتح القاف فهو الله سبحانه وتعالى الذى ينزل المطر . .

إن هذا الموقف خاص بالله تبارك وتعالى فلا توجد مخازن للمياه وليس هناك ماء فى الأرض . . من أنهار أو آبار أو عيون ولاملجأ الا الله . . فلابد من التوسل لله تبارك وتعالى :

عن أنس رضى الله عنه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبدالمطلب رضى الله عنه فقال : اللهم إنا كنا نتوسل اليك

بنبينا صلى الله عليه وسلم فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا قال : فيسقون»[1]

بعض الناس يقولون هذا دليل على أن الميت لا يستعان به . . بدليل أن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه لم يتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته ، وإنما توسل بعم رسول الله . . نقول وبمن توسل عمر ؟ . . أتوسل بالعباس أم بعم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . . توسل بالرسول ، وبذلك أخذنا الحجة أن الوسيلة ليست مقصورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وإنما تتعدى الى أقاربه . .

وهنا يأتى سؤال لماذا نقل الأمر من رسول الله عليه الصلاة والسلام الى عم الرسول ؟ . . نقول لأن رسول الله قد انتقل ولا ينتفع الآن بالماء . . ولكن عمه العباس هو الحى الذى ينتفع بالماء . . لذلك كان التوسل بعم رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يكن منطقيا أن يتوسلوا برسول الله عليه الصلاة والسلام وهو ميت لا يحتاج الى الماء . . والذين أرادوا أن يأخذوا التوسل بذوى الجاه . .نقول لهم أن الحديث ضدكم وليس معكم . . لأنه أثبت أن التوسل جائز بمن ينتسب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لابد أن نتحدث كيف أن الحق سبحانه وتعالى بعد أن قابل بنو اسرائيل النعمة بالجحود والنكران فكيف يسقيهم ؟ . . نقول إنها النبوة الرحيمة التى كانت السبب فى تنزل الرحمة تلو الرحمة على بنى اسرائيل . . وكان طمع موسى فى رحمة الله بلا حدود . . ولذلك فإن الدعوات كانت تتوالى من موسى عليه السلام لقومه . . وكانت الاستجابة من الله تأتى .

كان من المفروض لاستكمال المعنى أن يقال وإذا استسقى موسى ربه لقومه فقال يارب اسقهم . . ولكن هذه لم تأت حذفت وجاء بعدها الاجابة : «وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر» . . إذن قوله يارب اسق قومى واستجابة الله له محذوفة لأنها مفهومة . . ولذلك جاء القرآن باللقطات الأساسية وترك اللقطات المفهومة لذكاء الناس . . تماما كما جاء فى سورة النمل:الهدهد ذهب ورأى ملكة بلقيس وعرشها . وعاد الى سليمان وأخبره . فطلب سليمان من الهدهد

---

(١) رواه البخارى .

أن يلقى الى ملكة سبأ وقومها كتابا وقال :

﴿ اذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة النمل)

فسليمان أمر الهدهد أن يلقى كتابا الى بلقيس وقومها . . والآية التى بعدها جاءت بقوله تعالى : قالت «ياأيها الملأ إنى ألقى الىَّ كتاب كريم» كل التفاصيل حذفت من أن الهدهد أخذ الكتاب وطار الى ملكة سبأ وألقى الكتاب أمام عرشها . . والتقطت بلقيس ملكة سبأ الكتاب وقرأته . . ودعت قومها وبدأت تروى اليهم قصة الكتاب . . كل هذا حُذف لأنه مفهوم .

قال موسى يارب اسق قومى . . والله سبحانه وتعالى قال له: إن أردت الماء لقومك . . كل هذا محذوف . . وتأتى الآية الكريمة : «فقلنا اضرب بعصاك الحجر» .

«اضرب بعصاك الحجر» لنا معها وقفة . . الانسان حين يستسقى الله .. يطلب منه أن ينزل عليه مطرا من السماء ، والحق تبارك وتعالى كان قادرا على أن ينزل على بنى اسرائيل مطرا من السماء . ولكن الله جل جلاله أراد المعجزة . . فقال سأمدكم بماء ولكن من جنس ما منعكم الماء وهو الحجر الموجود تحت أرجلكم . . لن أعطيكم ماء من السماء . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يُرى بنى اسرائيل مدى الإعجاز . . فأعطاهم الماء من الحجر الذى تحت أرجلهم .

ولكن من الذى يتأثر بالضرب : الحجر أم العصا ؟ . . العصا هى التى تتأثر وتتحطم والحجر لا يحدث فيه شىء . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد بضربة واحدة من العصا أن ينفلق الحجر . . ولذلك يقول الشاعر :

أيا هازئاً من صنوف القدرْ
بنفسك تعنف لا بالقدرْ
ويا ضاربا صخرةً بالعصا
ضربتَ العصا أم ضربتَ الحجرْ

إن انفجار الماء من ضربة العصا دليل على أن العصا أشارت فقط الى الصخرة فتفجر منها الماء . . وحتى لو كانت العصا من حديد . . هل تكون قادرة على ان تجعل الماء ينبع من الحجر ؟

فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا الى أنه كان من الممكن أن ينزل الماء من السماء . . ولكن الله أرادها نعمة مركبة . . ليعلموا أنه يستطيع أن يأتى بالماء من الحجر الصلب . . وأن نبع الماء من متعلقات «كن» .

هنا لابد أن ننظر الى تعنت بنى اسرائيل.قالوا لموسى هب أننا فى مكان لا حجر فيه . من أين ينبع الماء ؟ . . لابد أن نأخذ معنا الحجر حتى اذا عطشنا نضرب الحجر بالعصا . . ونسوا أن هناك ما يتم بالأسباب وما يتم بكلمة «كن» . . ولذلك تجد مثلا كبار الأطباء يحتارون فى علاج مريض . . ثم يشفى على يد طبيب ناشىء حديث التخرج . . هل هذا الطبيب الناشىء يعرف أكثر من أساتذته الذين علموه ؟ . . الجواب طبعا لا .

إن التلميذ لا يتفوق على استاذه الذى علمه فليس العلاج بالأسباب وحدها ولكن بقدرة المسبب . . ولذلك جاء موعد الشفاء على يد هذا الطبيب الناشىء . . فكشف الله له الداء وألهمه الدواء .

يقول الحق سبحانه وتعالى : «فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا» لماذا اثنتا عشرة عينا . لأن اليهود كانوا يعيشون حياة انعزال . كل مجموعة منهم كانت تسمى «سبطا» لها شيخ مثل شيخ القبيلة . . والحق تبارك وتعالى يقول : «قد علم كل أناس مشربهم» أى كل سبط أو مجموعة ذهبت لمشرب . . نبعت العيون من الحجر وامتدت متشعبة الى الأسباط جميعا كل فى مكانه . . فإذا ما أخذوا حاجتهم ضرب موسى الحجر فيجف . ولذلك نعرف أن الحجر كان يعطيهم الماء على قدر الحاجة وكانت الجهة السفلى من الحجر الملامسة للأرض . . والجهة العليا التى ضرب عليها بالعصا لم ينبع منهما شىء ، أما باقى الجهات الأربع فقد نبع منها كل منها ثلاثة ينابيع .

وهناك شىء فى اللغة يسمونه اللفظ المشترك . . وهو الذى يستخدم فى معانٍ متعددة . . فاذا قلت سقى القوم دوابهم من العين . . العين هنا عين الماء . . واذا قلت أرسل الأمير عيونه فى المدينة يعنى أرسل جنوده . . وإذا قلت اشتريته

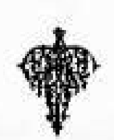
بعين أى بذهب . . وإذا قلت نظر الى بعينه شذرا أى ببصره . . إذن كلمة عين تستخدم فى أشياء متعددة . . ومعناها هنا عين الماء الجارية .

قوله تعالى : «قد علم كل أناس مشربهم» أى أن كل سبط عرف مكانه الذى يلزمه . . حتى لايضيع من كل منهم الماء . . ولكن الانسان حينما يكون مضطرا يلتزم بما يطلبه الله منه ويكون ملتزما بالاداء ، فاذا فرج الله كربه وعادت اليه النعمة يعود الى طغيانه . . ولذلك يقول الحق جل جلاله فيها : «كلوا واشربوا من رزق الله ولاتعثوا فى الأرض مفسدين» أى لا يكون شكركم على النعمة بالافساد فى الأرض . . واقرأ قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة سبأ)

هنا نرى أن أهل سبأ رزقهم الله فأعرضوا عن شكره . . كانوا يتيهون بالسد الذى يحفظ لهم مياه الأمطار . . ويمدهم بما يحتاجون إليه منها طوال العام ، وأخذوا يتفاخرون بعلمهم ونسوا الله الذى علمهم . . فكان هذا السد هو النكبة أو الكارثة التى أهلكت زرعهم . . كذلك حدث لبنى اسرائيل،قيل لهم : «كلوا واشربوا من رزق الله ولاتعثوا فى الأرض مفسدين».فأفسدوا فى الأرض ونسوا نعمة الله فنزل بهم العذاب .



﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ
لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ
أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ
لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ
مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ
بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة أيضا من آيات التذكير بنعم الله سبحانه وتعالى على موسى وعلى بنى إسرائيل . . وكنا قد تعرضنا لمعنى طعام واحد عند ذكر المن والسلوى . . وقلنا أن تكرار نزول المن والسلوى كل يوم جعل الطعام لونا واحدا . . وكلمة واحد هى أول العدد . . فإذا إنضم إليه مثله يصير اثنين . . وإذا إنضم إليه مثله يصبح ثلاثة . . إذن فأصل العدد هو الواحد . . والواحد يدل على وحدة الفرد ولا يدل على وحدانية . . فإذا قلنا الله واحد فإن ذلك يعنى أنه ليس كمثله أحد . . ولكنه لا يعنى أنه ليس مكونا من أجزاء . . فأنت لست واحدًا ولست أحدًا لانك مكون من أجزاء ـ كما أن هناك من يشبهونك . . والشمس فى مجموعتنا واحدة ولكنها ليست أحدًا لأنها مكونة من أجزاء وتتفاعل . . والله سبحانه وتعالى واحد ليس كمثله شىء . . وأحد ليس مكونا من أجزاء . . ولذلك من أسمائه الحسنى الواحد الأحد . . ولا نقول أن الاسم مكرر فهذه تعنى الفردية ، وهذه تنفى التجزئة .

وقوله تعالى : « لن نصبر على طعام واحد » . . نلاحظ هنا أن الطعام وُصف بأنه واحد رغم أنه مكون من صنفين هما المن والسلوى . . ولكنه واحد لرتابة نزوله . . الطعام كان يأتيهم من السماء . . ولكن تعنتهم مع الله جعلهم لا يصبرون عليه فقالوا ما يدرينا لعله لا يأتى . . نريد طعاما نزرعه بأيدينا ويكون طوال الوقت أمام عيوننا . . وكأن هذه المعجزات كلها ليست كافية . . لتعطيهم الثقة فى استمرار رزق الله . . إنهم يريدون أن يروا . . ألم يقولوا لموسى : « أرنا الله جهرة » . .

ماذا طلبوا ؟ . . قالوا : « فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض » . . « ادع لنا ربك » أى أطلب من الله . . ولأن الدعاء لون من الطلب فإنك حين تتوجه إلى الله طالبا أن يعطيك . . فإنك تدعو بذلة الداعى أمام عزة المدعو . . والطلب إن كان من أدنى إلى أعلى قيل دعاء . . ومن مساوٍ إلى مساوٍ قيل طلب . . ومن اعلى إلى أدنى قيل أمر . .

لقد طلب بنو إسرائيل من موسى أن يدعو الله سبحانه وتعالى أن يخرج لهم أطعمة مما تنبت الأرض . . وعددوا ألوان الأطعمة المطلوبة . . وقالوا : « من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها » . . ولكنها كلها أصناف تدل على أن من يأكلها هم من صنف العبيد . . والمعروف أن آل فرعون إستعبدوا بنى إسرائيل . . ويبدو أن بنى إسرائيل أحبوا حياة العبودية واستطعموها . .

الحق تبارك وتعالى كان يريد أن يرفع قدرهم فنزل عليهم المن والسلوى . . ولكنهم فضلوا طعام العبيد . . والبقل ليس مقصودًا به البقول فحسب . . ولكنه كل نبات لا ساق له مثل الخس والفجل والكرات والجرجير . . والقثاء هو القتة صنف من الخيار . . والفوم هو القمح أو الثوم. والعدس والبصل معروفان . . والله سبحانه وتعالى قبل أن يجيبهم أراد أن يؤنبهم : فقال « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » . .

عندما تسمع كلمة استبدال فاعلم أن الباء تدخل على المتروك . . تقول إشتريت الثوب بدرهم . . يكون معنى ذلك إنك أخذت الثوب وتركت الدرهم .

قوله تعالى : « الذى هو أدنى بالذى هو خير » . . أى انهم تركوا الذى هو خير وهو المن والسلوى . . وأخذوا الذى هو أدنى . . والدنو هنا لا يعنى الدناءة . . لأن ما تنتجه الأرض من نعم الله لا يمكن أن يوصف بالدناءه . . ولكن الله تبارك وتعالى يخلق بالأسباب ويخلق بالأمر المباشر . . ما يخلقه الله بالأمر المباشر منه بكلمة « كن » . . يكون خيرا مما جاء بالأسباب . . لأن الخلق المباشر لا صفة لك فيه . . عطاء خالص من الله . . أما الخلق بالأسباب فقد يكون لك دور فيه . . كأن تحرث الأرض أو تبذر البذور . . ما جاء خالصا من الله بدون أسبابك يقترب

من عطاء الآخرة التى يعطى الله فيها بلا أسباب ولكن بكلمة « كن » . . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾

(سورة طه)

فالله تبارك وتعالى يصف رزق الدنيا بأنه فتنة . . ويصف رزق الآخرة بأنه خير منه . . مع أن رزق الدنيا والآخرة ، وكل رزق فى هذا الوجود حتى الرزق الحرام هو من الله جل جلاله . . فلا رازق إلا الله ولكن الذى يجعل الرزق حراما هو استعجال الناس عليه فيأخذونه بطريق حرام . . ولو صبروا لجاءهم حلالا . .

نقول إن الله سبحانه وتعالى هو الذى يرزق . . ولكنه سمى رزقا فتنة وسمى رزقا خيرا منه . . ذلك أن الرزق من الله بدون أسباب أعلى وأفضل منزلة من الرزق الذى يتم بالأسباب . .

إذن الحق سبحانه وتعالى حين يقول : « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » . . يكون المعنى أتستبدلون الذى هو رزق مباشر من الله تبارك وتعالى . . وهو المن والسلوى يأتيكم « بكن » قريب من رزق الآخرة بما هو أقل منه درجة وهو رزق الأسباب فى الدنيا . . ولم يجب بنو إسرائيل على هذا التأنيب . . وقال لهم الحق سبحانه وتعالى : « اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم » . . ولا يقال لهم ذلك إلا لأنهم أصروا على الطلب برغم أن الحق جل جلاله بين لهم أن ما ينزله إليهم خير مما يطلبونه . .

نلاحظ هنا أن مصر جاءت منوّنةً . . ولكن كلمة مصر حين ترد فى القرآن الكريم لاترد منونة . . ومن شرف مصر أنها ذكرت اكثر من مرة فى القرآن الكريم . . نلاحظ أن مصر حينما يقصد بها وادى النيل لا تأتى أبدا منونة وإقرأ قوله تعالى :

﴿ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾

(من الآية ٨٧ سورة يونس)

وقوله جل جلاله :

﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾

(من الآية ٥١ سورة الزخرف)

وقوله سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾

(من الآية ٢١ سورة يوسف)

وقوله تبارك وتعالى :

﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾

(من الآية ٩٩ سورة يوسف)

كلمة مصر ذكرت فى الآيات الأربع السابقة بغير تنوين .. ولكن فى الآية التى نحن بصددها : « اهبطوا مصرًا » بالتنوين .. هل مصر هذه هى مصر الواردة فى الآيات المشار إليها ؟ .. نقول لا .. لأن الشىء الممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث .. إذا كان لبقعة أو مكان .. مرة تلحظ أنه بقعة فيبقى مؤنثًا .. ومرة تلحظ أنه مكان فيكون مذكرا .. فإن كان بقعةً فهو علم ممنوع من الصرف .. وإن كان مكانا تكون فيه علمية وليس فيه تأنيث .. ومرة تكون هناك علمية وأعجمية ولكن الله صرفها فى القرآن الكريم .. كلمات نوح ولوط وشعيب ومحمد وهود ..

كل هذه الأسماء كان مفروضا أن تمنع من الصرف ولكنها صرفت .. فقيل فى القرآن الكريم نوحا ولوطا وشعيبا ومحمدا وهودا .. إذن فهل من الممكن أن تكون مصر التى جاءت فى قوله تعالى : « اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم » هى مصر التى عاشوا فيها وسط حكم فرعون .. قوله تعالى : « اهبطوا مصرا » من

الممكن أن يكون المعنى أى مصر من الأمصار . . ومن الممكن أن تكون مصر التى عاش فيها فرعون . . وكلمة مصر تطلق على كل مكان له مفتى وأمير وقاض . . وهى مأخوذة من الاقتطاع . . لأنه مكان يقطع إمتداد الأرض الخلاء . . ولكن الثابت فى القرآن الكريم . . ان مصر التى لم تنون هى علم على مصر التى نعيش فيها . . أما مصرًا التى خضعت للتنوين فهى تعنى كل وادٍ فيه زرع . .

وقوله تعالى : « وضربت عليهم الذلة والمسكنة » . . الذلة هى المشقة التى تؤدى إلى الإنكسار . . ويمكن أن ترفع عنك بأن تكون فى حمى غيرك فيعزك بأن يقول إنك فى حماه . . والله سبحانه وتعالى يقول عن بنى إسرائيل :

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة آل عمران)

حبل من الله كما حدث عندما عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة . . وعاشوا فى حمى العهد . . إذن بحبل من الله أى على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو المؤمنين به . . وبحبل من الناس أى فى حماية دولة قوية كالولايات المتحدة الأمريكية . . إذا عاهدتهم عزوا وإن تركتهم ذلوا . .

وقوله تعالى : « وضربت عليهم الذلة » ضربت أى طبعت طبعة قوية بضربة قوية تجعل الكتابة بارزة على النقود . . ولذلك يقال ضربت فى مصر . . أى أعدت بضربة قوية أذلتهم وبقيت بارزة لا يستطيعون محوها . . أما المسكنة فهى إنكسار فى الهيئة .

أهل الكتاب كانوا يدفعون الجزية والجزية كانت تؤخذ من الأغنياء . . وكانوا يلبسون الملابس القذرة . . ويقفون فى موقف الذل والخزى حتى لا يدفعوا الجزية .

وقوله تعالى : « وباءوا بغضب من الله » . . أى غضب الله عليهم بذنوبهم وعصيانهم . حتى أصبح الغضب ـ من كثرة عصيانهم ـ كأنه سمة من سماتهم

لماذا ؟ : « ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق » أى انهم كانوا يكفرون بالنعم ولا يشكرون . . ويكفرون بالآيات ويشترون بها ثمنا قليلا . . ولم يكتفوا بذلك بل كانوا يقتلون أنبياء الله بغير حق . .

الأنبياء غير الرسل . . والأنبياء أسوة سلوكية ولكنهم لا يأتون بمنهج جديد . . أما الرسل فهم أنبياء بأنهم أسوة سلوكية ورسل لأنهم جاءوا بمنهج جديد . . ولذلك كل رسول نبى وليس كل نبى رسولا . والله سبحانه وتعالى يعصم أنبياءه ورسله من الخطيئة . . ولكنه يعصم رسله من القتل فلا يقدر عليهم أعداؤهم . . فمجىء الأنبياء ضرورة . . لأنهم نماذج سلوكية تسهل على الناس التزامهم بالمنهج ، وبنو إسرائيل بعث الله لهم أنبياء ليقتدوا بهم فقتلوهم . . لماذا ؟ . . لأنهم فضحوا كذبهم وفسقهم وعدم التزامهم بالمنهج . . ولذلك تجد الكافر والعاصى وغير الملتزم يغار ويكره الملتزم بمنهج الله . . ويحاول إزالته عن طريقه ولو بالقتل . . إذن فغضب الله عليهم من عصيانهم واعتدائهم على الأنبياء وما ارتكبوه من آثام .

